Vendredi 14 Mai 1999 – 66 ème Année – N° 20345
٢٤ صفحة / ٢٠٠٠ ليرة
ANNAHAR

روحانا ورفاقه "الرباعي الوتري" في الأسامبلي هول

تطوّر في العود وخصائصه النغمية

عزفوا باخ وغريغ وتشايكوفسكي مثل المقطوعات الشرقية

شربل روحانا، التقنية العالية.

من اليمين: شربل روحانا، اندره الحاج، حسين خليل وجهاد شمالي. (محمود الطويل)

للمرة الاولى في لبنان والعالم العربي، وبرعاية المعهد الوطني العالي للموسيقى (الكونسرفاتوار) ومساعدته قدّمت مساء اول من امس حفلة موسيقية شرقية في قاعة "الاسمبلي هول" في الجامعة الاميركية في بيروت احياها "رباعي وتري "للعود مؤلف من شربل روحانا (عود سوبرانو)، واندره الحاج (التو)، وجهاد شمالي (التو)، وحسين خليل (باص).

هذا "الرباعي الوتري" تطور كبير في الموسيقى الشرقية، لأنه قدم آلة العود بخصائص صوتية مختلفة. فالجرس الذي يعطيه كل عود على حدة يختلف في هويته وطبيعته عن الجرس الذي للعود الآخر.

اذن نحن أمام جرسات (جرس) وطبقات مختلفة ومتباينة للآلة نفسها، كأنه تم تقسيم العود اعواداً، او كأنما اضيفت الى العود عبر تقنية صناعته خصائص صوتية جديدة. وهذا يعني ان كلاً من الاعواد الاربعة يؤدي دوراً صوتياً مختلفاً، اذ تنتقل من الصوت العريض الى الحاد، وذلك ما خلق تنويعاً في الصوت وغنى في نوعيته. وفي الأمر مجال واسع للتأليف الموسيقي (التضاد على سبيل المثل) وللكتابة الموسيقية الجديدة.

اللافت في هذه التجربة ان عود الباص كان حاضراً في قوة، اذ اعطى زخماً اضافيا ورخامة صوتية، واحتضن في الوقت نفسه الاعواد الباقية.

أكدت هذه التجربة الفريدة في الموسيقى العربية الحديثة والمعاصرة ميزة اساسية مفادها انه اذا استطاع العازف الجيد اتقان التهذيب والصقل لبلوغ تقنية عالية في التنفيذ والاداء، فانه يستطيع تحقيق انجازات ضخمة في تطوير الموسيقى العربية. لكن ما سمعناه في حفلة "الاسمبلي هول" لناحية التهذيب المبالغ فيه، اثّر في محو بعد مهم من هوية العود الصوتية ومن النغمية الشرقية التي يمكن ان يتميز بها.

رغم الاحساس الكبير الذي نفذ عبره العازفون الاربعة المقطوعة الموسيقية ورغم التقنية العالية والقدرة على الصقل والتهذيب، فان العود كآلة موسيقية شرقية، لم يحافظ على سماته التقليدية المعروفة. اذ انتقل من خصائصه التقليدية الى التجريب والتجديد وتجاوز كل الخصائص من دون ان يلغيها. تؤكد ذلك المقطوعات الموسيقية التي قدمت في القسم الاول من الحفلة ووسمت بطابع هندي او يوناني من حيث الاداء اسلوباً. لكن – وهنا بيت القصيد – الذي حصل شيء ضخم، لأن العود، بصناعته الجديدة التي انجزها نزيه غضبان، فتح خطاً تجديدياً رائداً في الموسيقى العربية، وحفلة شربل روحانا في الاسمبلي هول ليست الا الحلقة الاولى منه.

رغم ان الالحان المقدمة حلوة وتنتمي الى المستوى الجيد في الموسيقى الشرقية والغربية، الا ان توزيعها اعتمد الحركة المتوازية، اي تكرار الجملة الموسيقية في مستويين عالٍ ومنخفض، من دون ان تفتح باب الوصول الى خلق تعددية صوتية يأتي في مقدمها التضاد، مما اوقع التوزيع الموسيقي في بعض الرتابة، وجعله كذلك محاصراً في اطار التنغيمية التصويرية، فلم يستطع الانتقال الى الدرامية المطلوبة. وفي لعب العازفين لباخ على سبيل المثل، لم يبلغ التعبير الموسيقي اقصاه. ورغم ذلك لعب شربل روحانا على عوده وكذلك العازفون الآخرون تشايكوفسكي، وغريغ وباخ في احساس متوازن وتقنية عالية.

ما ينطبق على تأدية الجملة الموسيقية يوازيه في شكل آخر تقديم القوالب الموسيقية الشرقية، وخصوصاً "اللونغا" و"البشرف" و"السماعي" فقد قدم "الرباعي الوتري" للعود احياءً جدياً للقوالب الموسيقية المذكورة في اطار من الموسيقى البحتة، وهو تطوير كبير واغناء لنكهة القوالب الجديدة. واثبت شربل روحانا وزملاؤه العازفون ان العود يستطيع ان يؤدي الموسيقى الغربية تماماً كما يؤدي الموسيقى الشرقية. وكان شربل روحانا تميز في "شرقيته الموسيقية" في مقطوعته "تمرين بياتي"، اذ تألقت تقنية العازف، وبرز التوزيع على ربع الصوت، وبرز التكامل والتواصل العضويان والعميقان بين الاعواد الاربعة، وذاك ما نستطيع اعتباره تحريراً للعود من تقليديته ودوره المحدود أي منح العود شخصية موسيقية تامة بعيداً من دوره كآلة ترافق المطرب او المغني، او كآلة لا تستطيع تأدية الاصوات العالية والمنخفضة.

تجربة المشاركين في هذه التجربة، شربل روحانا ورفاقه، والمعهد الوطني العالي للموسيقى، وصانع الاعواد نزيه غضبان، فتحت باب التجديد والتطوير لآلة موسيقية شرقية تقليدية، لكنها فتحت في الوقت نفسه المناقشة الصعبة حول هوية تلك الآلة وخصوصية اصواتها.

هاشم قاسم